محاضرة 1: الدولة الفاطمية وأزمات المشرق
1171/909م

أولا: الدولة الفاطمية في بلاد المغرب:

1/ نسب الفاطميين والتعريف بهم:

اختلفت المصادر التاريخية حول تحديد نسب الفاطميين، فمعظم المصادر الشيعية تؤكد صحة ما قال به مؤسس هذه السلالة الإمام عبيد الله المهدي، وهو أنّ الفاطميين يرجعون في نسبهم إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، فهم بذلك علويين من سلالة الرسول محمد عبر ابنته فاطمة الزهراء ورابع الخلفاء الراشدين، الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

شجرة نسب الفاطميين

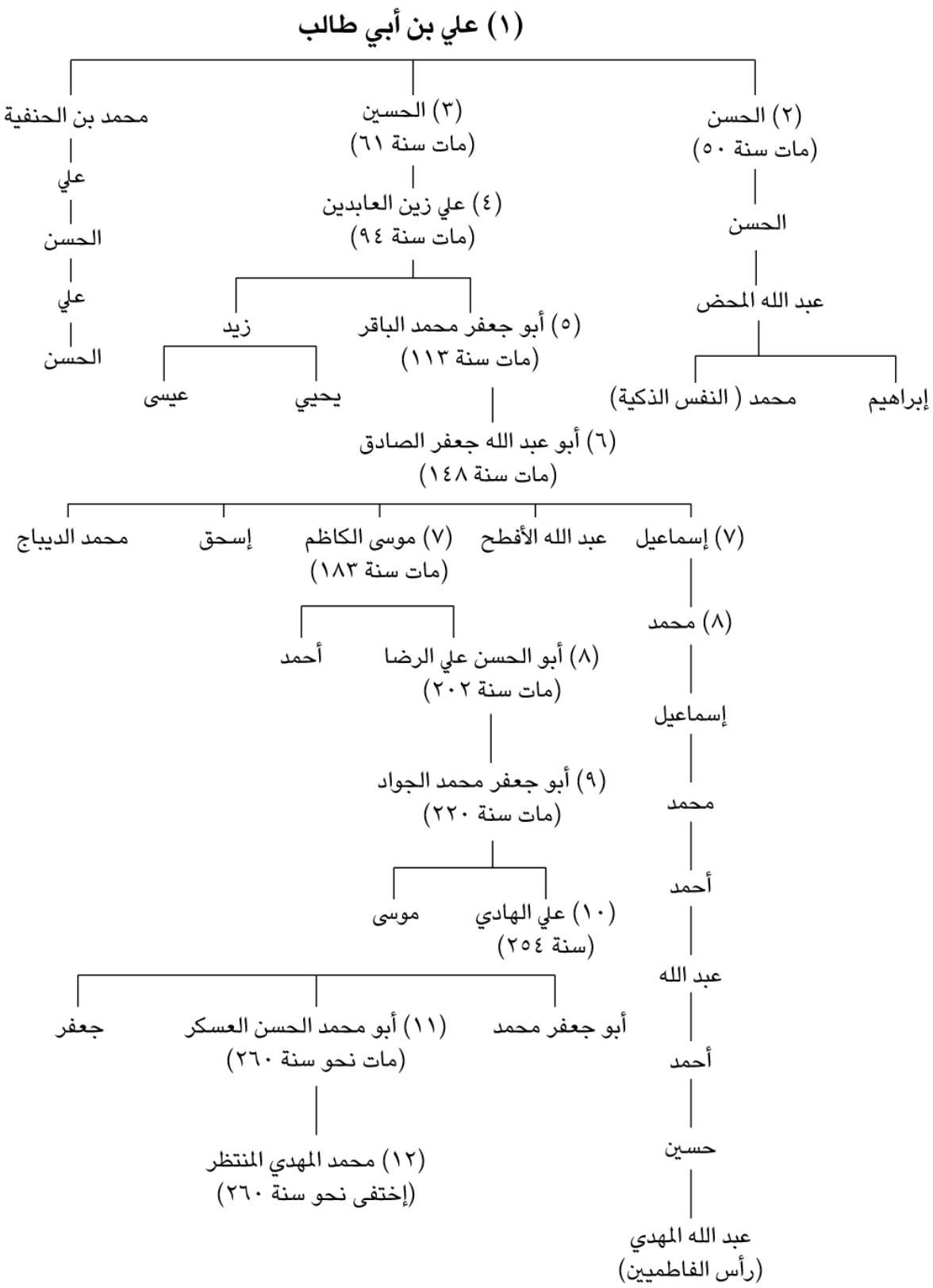

2/ نشأة الحركة الشيعية وانقساماتها:

هي حركة اجتماعية فلسفية سياسية يدعي أصحابها نسبهم إلى السيدة فاطمة والإمام علي رضي الله عنه، الفترة الأولى للدعوة الإسماعيلية فيها غموض، وتمتد من بداية الحركة الإسماعيلية في منتصف القرن2هـ/8م، والسبب ندرة المعلومات الدقيقة عن التشيع خلال الفترة العباسية الأولىن وذلك عندما لجأت غالبية فرق الشيعة الإثنا عشرية والاسماعيلية في طور تكوينها إلى التقية والعمل السري، وقد نتج عن انقسام الشيعة بروز حركتين هامتين هما:

أولا: الشيعة الإسماعيلية:

يبدأ تاريخ الإسماعيلية كحركة مستقلة عندما نشأ الجدل حول خلافة الإمام جعفر الصادق 148هـ/765م، حيث أن جعفر الصادق عيّن ابنه إسماعيل خليفة له عن طريق النص، ومن شرعية هذا التعيين استمدت الإسماعيلية اسمها أي نسبتها إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، حيث أنّ هذا الأخير إسماعيل بن جعفر الصادق قد توفي في حياة أبيه سنة 145هـ/761م، فذهبت الإسماعيلية إلى أنّ الإمامة تنتقل إلى ابنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وتعتبره صاحب الحق الشرعي في خلافة إسماعيل، وترى أنّ جعفر الصادق قد عينه بنفسه مكان أبيه بعد وفاته، وتبعا لهؤلاء فإنّ الإمامة لا ينبغي أن تنتقل من أخ إلى أخيه بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين، وإنّما يجب أن تستمر في الأعقاب.

ثانيا: الشيعة الإمامية الاثنا عشرية:

ذهبت هذه الفرقة التي عُرفت بالإثني عشرية نسبة إلى أئمتهم وكونوا سلسلة من 12 إمام، تبدأ بعلي بن أبي طالب وتنتهي بمحمد بن الحسن العسكري الذي اختفى وينتظرون عودته، وذهبت إلى أنّ موسى الكاظم الابن الثاني لجعفر الصادق هو الإمام السابع في سلسلة الأئمة الاثنى عشر، وقد عاش موسى الكاظم حتى توفي مسموما في بغداد سنة 183هـ/799م، أثناء فترة حكم الخلافة العباسية.

3/ نشاط الدعوة الفاطمية الإسماعيلية وتأسيس الدولة في بلاد المغرب:

كان التشيع هو مذهب دعاة الإسماعيلية الذين دعوا النّاس إلى اعتناقه من خلال نشر أفكاره وعقائده، وانبرى لمهمة نشر هذا المذهب عدد من الرجال خاصة في الأنحاء القاصية مثل: اليمن وبلاد المغرب في النصف 2من القرن3هـ، فكان في بلاد المغرب داعيان هما: الحلواني وأبو سفيان، وفي اليمن داعيان هما: ابن حوشب وأبو عبد الله الشيعي، فلما علم ابن حوشب بموت الحلواني وأبو سفيان أوفد أبو عبد الله الشيعي على بلاد المغرب، فأصبح المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية في المغرب

وكان وصول الداعي أبو عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب سنة 291هـ/903م، حيث بدأ جهوده بالدعوة لنصرة إمامه عبيد الله المهدي، الذي يؤمن أنه من نسل وذرية الحسين بن علي رضي الله عنهما، وأخذ في الدعوة إلى مبايعته ونشر مذهب الإسماعيلية، حيث نجح في استقطاب آلاف المؤيدين لهذه الدعوة في منطقة المغرب، وتحديدا بين قبائل البربر الأمازيغ وخاصة قبيلة كتامة، وذلك بسبب بعدها عن المشرق، كما وجد فيها بيئة خصبة يسهل فيها نشر التشيع بسبب بساطة إسلام المغاربة وعدم وجود النزاعات الفكرية بين أهله.

كما بدأ جهوده الحربية سنة 296هـ/909م ليتم لأبي عبد الله الشيعي النصر النهائي على الولايات القائمة في شمال إفريقيا، كدولة بني مدرار في سجلماسة ودولة بني رستم في تيهرت ودولة الأغالبة في إفريقية، واتخذ مدينة المهدية عاصمة لهم.

وبعد 3سنوات من وصوله إليها أرسل إلى عبيد الله المهدي الإمام الإسماعيلي يستدعيه من الشام لكن قبض عليه قبل أن يصل إليها، ثمّ دبر مؤامرة أطلق من خلالها سراح عبيد الله، فقاد الجيش بنفسه ودخل مدينة رقادة سنة 297هـ/910م، وخطب باسمه على منابر رقادة والقيروان بعد أن قضى على الأغالبة ولقب بأمير المؤمنين وتأسست بذلك الدولة الفاطمية في بلاد المغرب.

ثم توسع الخلفاء الفاطميون أكثر فضموا إلى مملكتهم مناطق وأقاليم شمال إفريقيا والشرق الأوسط، وامتد نطاقها على طول الساحل المتوسطي من المغرب إلى مصر، كما ضموا الشام والحجاز وجزيرة صقلية، فأضحت دولتهم مستقلة عن الخلافة العباسية وأصبحوا المنافس الرئيسي لها على زعامة الأراضي المقدسة وزعامة المسلمين.

كما اتخذ الفاطميون مدن عدة كعواصم لهم وذلك لدواع أمنية فكانت أولى عواصمهم مدينة المهدية في ولاية إفريقية سنة 300هـ/912م، واتخذوها عاصمة لدولتهم الناشئة، وفي سنة 336هـ/948م نقلوا مركز الحكم إلى مدينة المنصورية، ولما تم للفاطميين فتح مصر سنة 358هـ/969م أسسوا مدينة القاهرة شمال الفسطاط وجعلوها عاصمة لهم، فأصبحت مصر المركز الروحي والسياسي للدولة، وبقيت كذلك حتى انهيارها.

4/ التنظيم الإداري للدولة الفاطمية في بلاد المغرب:

هناك من اعتبر أن فترة ظهور عبيد الله المهدي برقادة يمثل البداية الحقيقية لتكوين أول دولة شيعية في العالم الإسلامي، بينما ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أنّ اللبنات الأولى لتكوينها كانت على يد الداعية أبي عبد الله الشيعي

وقد حرص الفاطميون على ضبط أمور بلاد المغرب وتنظيمها إداريا، فكان من أبرز مظاهر ذلك مايلي:

أ/ المؤسسات الإدارية العامة: والمقصود بالمؤسسات الإدارية العامة تلك الدواوين التي رتبها الخليفة عبيد الله المهدي، حيث جعل لكل ديوان اختصاصاته ووظيفته مثل:

* **ديوان الخراج:** حيث كان الخراج من بين الموارد الهامة لبيت مال الفاطميين وهو يختلف عن الجزية، كون الخراج ضريبة على الأرض أما الجزية فتفرض على رقاب أهل الذمة، ومن أهمها: **ديوان الضياع الذي أنشأه عبيد الله المهدي 909_934م**، وكان من اختصاصات صاحب الخراج

***ديوان العطاء:** خصص لأعطيات الجند والموظفين في الدولة وسائر النفقات، إذ أشار القاضي النعمان إلى أن نفقة وراتب العبيد كانت تسدد من هذا الديوان.

***ديوان أموال الهاربين مع زيادة الله:** وكان أبو عبد الله الشيعي أول من بادر إلى إنشائه وذكر المقريزي بأنه" أمر بجمع ما كان لزيادة الله من الأموال والسلاح وغيره فاجتمع منه الكثير"، ويبدوا أنّ زيادة الله الأمير الأغلبي قد خلف وراءه ثروة طائلة.

***بيت المال:** وهو مؤسسة إدارية مهمتها إدارة مداخيل الدولة ومصاريفها العامة، وهو أصل كل الدواوين، ويقع بيت المال تحت إشراف الخليفة وهو وحده الذي يختم عليه.

ب/ المؤسسات الإدارية الخاصة: فلقد تعددت المصالح الإدارية في الخلافة الفاطمية، وهي لا تقل عن أهمية المؤسسات السابقة منها: **مصلحة البريد، مصلحة الكتابة، ومن أشهر من تولاها على عهد عبيد الله الهدي"أبو اليسر**

الشيباني" الذي كان كاتبا لبني الأغلب، كما وجدت مصلحة" الحجابة"، وقد تولاها"جعفر بن علي" ويسمى"الحاجب"

أما **مصلحة القضاء، فأورد القاضي النعمان** أن عبيد الله المهدي كان نفسه يباشر سماع المظالم، وكان ذلك في بداية قيام الخلافة قبل تنصيب مصلحة القضاء، وتعيين القضاة، وكانت الأحكام وفق ما ينص عليه المذهب الإسماعيلي.

ج/ ولاية الأقاليم:

قام ملك الفاطميين بالمغرب الإسلامي على أنقاض ثلاث دول" الأغالبة، بنو مدرار، بنو رستم"، فكان أن ورث الفاطميون رقعة جغرافية مترامية الأطراف، وبما أن الخليفة لا يستطيع تسيير كل هذه الأقاليم الممتدة بمفرده، كان من الطبيعي أن ينوب عنه ولاة يتولون تسييرها، وإن كان الخليفة وفق المذهب الإسماعيلي هو صاحب السلطة المطلقة، فإنه بذلك يولي من يشاء ويعزل من يشاء عملا بهذا الحق.

وقد انطلق عبيد الله في تولية ولاة الأقاليم من القاعدة التي تقول:"أن الولاء شرط الولاية"، أي وفق ما تنص عليه المبادئ الإسماعيلية، وعليه فقد كان جميع الولاة من أنصار الدعوة الإسماعيلية قدموا خدمات للدولة، وكانوا في الغالب من رجالات كتامة ومنهم: ماكنون بن ضيارة الإيكجاني الذي استعمله على ولاية طرابلس، وجعل إبراهيم بن غالب المزاتي على ولاية سجلماسة، أما ولاية المهدية ورقادة وغيرها من الأعمال فجعلت لأفلح بن هارون الملوسي، وما يلاحظ على هؤلاء الولاة، أنهم قد تمتعوا بالنفوذ المطلق في ولاياتهم.

ثانيا: انتقال الفاطميين إلى المشرق –مصر–

تمهيد:

عندما أعلن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي عزمه على التوجه الى الشرق وإرسال جيشه لفتح مصر كان قد استعد لذلك جيدا ووضع ضمانات كافية لإنجاح مشروعه خاصة بعد أن سيطر على جميع أراضي الشمال الإفريقي ، وكذلك الجزر الواقعة في البحر المتوسط مثل:سردينة–صقلية كما حاول فتح الأندلس وكل ذلك لتنظيم قاعدة والانطلاق منها الى المشرق.

وقد ساعدت الأحداث في مصر خاصة في السنوات الأخيرة للحكم الإخشيدي على ذلك منها:

الفوضى السياسية والأزمات الاقتصادية التي كان يتخبط فيها المشرق الإسلامي أنذاك (تمردات على العباسيين ثورة الزنج في اقليم البصرة 15سنة +ثورة القرامطة ودخولهم الجزيرة العربية+قيام الدول المستقلة وحركات انفصالية(الدولة الصفارية والسامانية والطاهرية في الشرق الدولة الطولونية والاخشدية في الغرب–الدولة الحمدانية في نواحي الموصل وحلب ومحاولة اخذ بغداد–الدولة البويهيدية في العاصمة بغداد) فضلا على نجاح دعاة الفاطميين.

1– فتح مصر:

حاول الفاطميون الاستلاء على مصر مرتين في عهد خليفتهم الأول المهدي لكنهم فشلو (301هـ–913م / 307هـ–919م) وحاولوا مرة ثالثة في عهد الخليفة القائم بأمر الله في 323هـ/ 934م وفشلو وفي عهد رابع خلفائهم وهو المعتز لدين الله نجحت.

بدأ الفاطميون منذ سنة 355هـ/ 966م باتخاذ الإجراءات لعملية الانتقال إلى الشرق وإلى مصر بصفة خاصة ، فقد أمر المعز لدين الله بحفر الآبار في طريق مصر وأن يُبنى له في كل منزلة قصر ففي محرم سنة 358هـ/968م جمع المعز

لدين الله بالقرب من رقادة نحو (مائة الف فارس) أغلبهم من القبائل البربرية وخاصة كتامة وزويلة ومن الصقالية ، وقدم عليهم (جوهر الصقلبي) ليقودهم لفتح مصر ومنحه تفويضا كاملا بسلطاته السياسية والمالية والعسكرية ، وأعد هذا الجيش بعناية فائقة من حيث العدة والعتاد وعندما وصل جوهر الى مصر وتسلمها يوم الثلاثاء 17 شعبان من سنة 358هـ/يوليو969م لم يواجه الجيش الفاطمي أي مقاومة حقيقية إلا بعض الوفود الإخشيدية والطولونية.

لقد كان الفتح الفاطمي لمصر لايعني قيام حكومة مكان أخرى بل كان بمثابة إنقلاب ديني ثقافي اجتماعي بعيد المدى صحبه تحول في نظام الحكم ،فلأول مرة في التاريخ الاسلامي تحكم مصر بدولة لا تدين بالولاء الإسمي لبغداد.

كان اختيار الفاطميين لمصر وتأسيسهم خلافة مستقلة بها هو عودة الى وضع جغرافي سياسي أنشأته الوقائع وأحداث التاريخ ، فالعالم الإسلامي كان بحاجة الى مركز متوسط كانت تشغله الإسكندرية في العصر الروماني البيزنطي، وقدتنبه الفاطميون لذلك زيادة على ما كانت تزخر به مصر من سعة مواردها وكثرة أرزاقها ومكانتها الوسطى في قلب العالم الاسلامي.

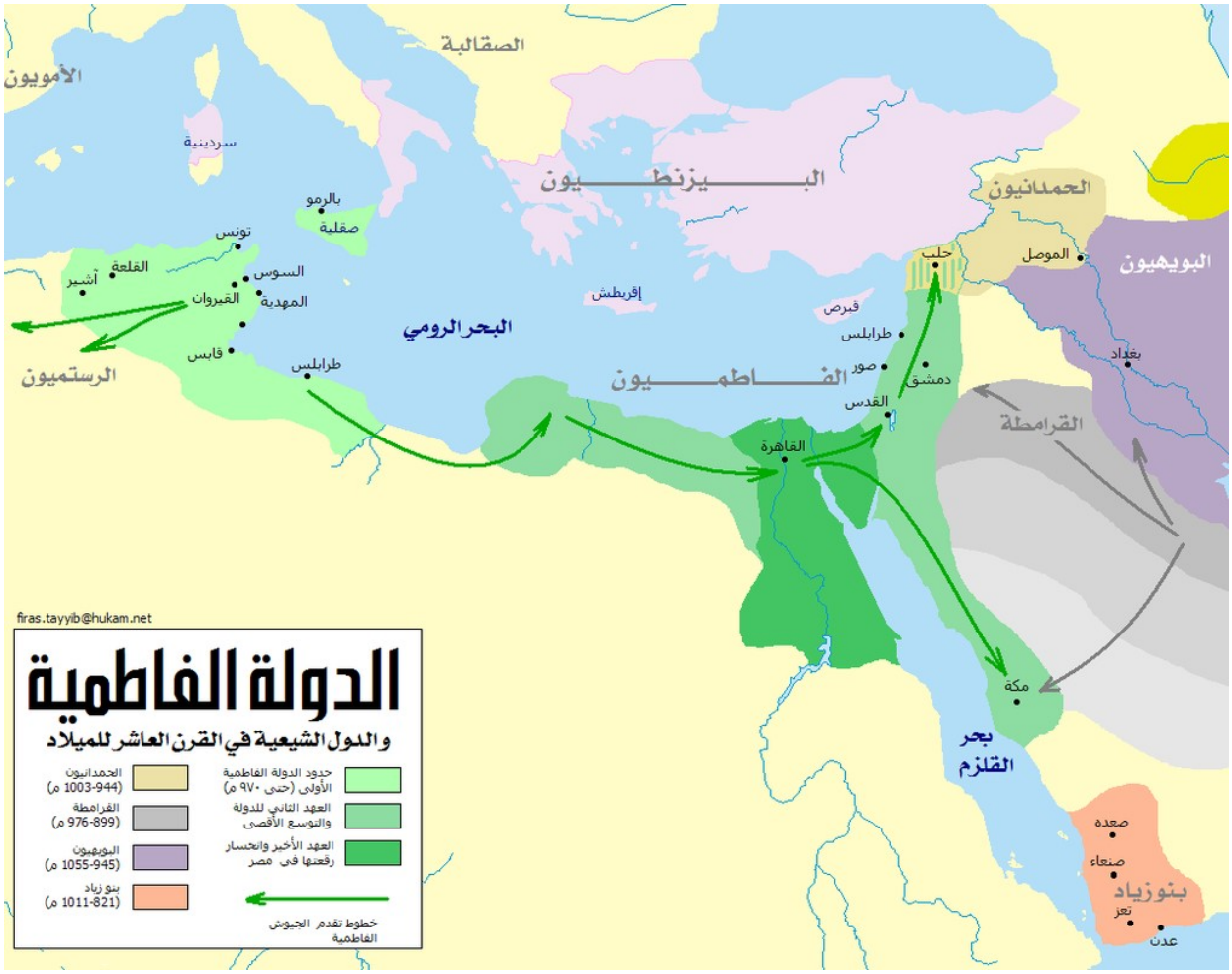

خريطة توسع الدولة الفاطمية بالمغرب والمشرق

2- منجزات الفاطميين بمصر بعد فتحها :

كان أول عمل قام به جوهر بعد فتح مصر هو اختطاط مدينة جديدة بناءا على توجيهات الخليفة المعز تكون مدينة ملكية وعاصمة لإمبراطورية عالمية شاملة تظم جميع الأراضي الإسلامية وهي مدينة القاهرة عام 970م، كما منح عهد الأمان للمصريين بترك حرياتهم الدينية والمذهبية ، وجاء في الاتفاقية (إعزاز المصريين وحمايتهم –معالجة الحالة الاقتصادية –تأمين طرق الحج – منح الحريات للأقليات الدينية من المسيحيين واليهود) وهو إجراء ماهر لكسب تأييد المصريين.

حكم جوهر مصر نيابة عن الخليفة المعز أربع سنوات من358هـ الى 362هـ وهي من أهم فترات التاريخ الفاطمي لمصر فقد تمت فيها التغييرات المذهبية والإدارية اللازمة والتي مهدت لقدوم الخليفة المعز وانتقاله الى الشرق ليعلن مصر دار خلافة.

ومن الإجراءات الإدارية التي اتبعها: أنه أقر على رأس المناصب الإدارية والدينية نفس الأشخاص الذين كانو يشغلونها وقت الفتح (فقد أبقى مثلا جعفر بن الفرات مشرفا على المالية والقاضي أبا الطاهر الذهيلي على القضاء، وعبد السميع بن عمر العباسي كخطيب لجامع مصر)، فلم يقم بوضع أشخاص جدد في الإدارة المصرية قبل أن يتعرف على نظامها جيدا وذلك بالاعتماد على رجال الحكم السابق إلى حين انتهائه من إتمام فتح الوجهين البحري والقبلي وبعد أن أنهى ذلك لم يدع عملا إلا جعل فيه مغربيا شريكا لمن فيه.

قطع جوهر خطبة العباسيين على منابر مصر،وحذف اسمهم على السكة وأحل اسم الخليفة المعز وأزال شعار العباسيين –السواد–وألبس الخطباء في الجوامع الثياب البيض شعار الفاطميين، كما أمر بفتح دار الضرب بالفسطاط والتي كانت معطلة آخر عهد الإخشديين وضرب سكة عليها اسم المعز لدين الله سنة358هـ/969م

بنا جوهر بالقاهرة القصر الكبير للخليفة وحريمه ورجال دولته وعساكره لكن القصر انفتح على عامة الناس من بعد في عهد المستنصر بالله، كما أسس جامع الأزهر وهو أكبر جامع بمصر وكان قبله جامعان فقط : جامع عمر بن العاص في الفسطاط ، وجامع أحمد بن طولون في القطائع ،وكان هدف الفاطميين من بناء الأزهر هو جعله مركزا لنشر المذهب الشيعي، ورمزا لانتصارهم على الدولة العباسية وقد ابتدأ بناءه في أفريل970م خلص في سنتين و3اشهر، وفُتح لأول مرة للصلاة فيه يوم الجمعة 21يونيه972م (7رمضان361هـ) وكان اسمه جامع القاهرة طول العصر الفاطمي، واستمر على تلك التسمية إلى عهد العزيز بالله فتسمى بالأزهر وإلى جانب صفته الدينية كان مركزا للتعليم عن طريق حلقات تدريس ونشر المذهب الشيعي(صورة الجامع ملحقة بمحاضرة الحياة الثقافية بمصر في العهد الفاطمي).

3/فترات الحكم الفاطمي بمصر:

العصر الأول(الازدهار)

حكمت الدولة الفاطمية مصر أكثر من قرنين من 969 إلى1171م، وكانت فترة حكمهم قد انقسمت الى قسمين: القسم الأول مدته حوالي100سنة ينتهي في النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر وفي هذه الفترة بذل الخلفاء الفاطميون جهوداكثيرة لتنظيم شؤون مصر الداخلية ، وفيها انتشر الأمن وتطور القطاع الاقتصادي ونهضت التجارة الداخلية وتكون جيش قوي وأسطول بحري وذلك في عهد الخلفاء التالين:(المعز لدين الله حكم مصر 3سنين من 362هـ/972م إلى 365هـ/975م// العزيز بالله ابن المعز واهتم بالتوسع الخارجي وفي عهده إمتدت الدولة المصرية من المحيط الأطلسي في الغرب للخليج الفارسي في الشرق ومن أقصى الشام في الشمال الى اليمن وبلاد النوبة في الجنوب واغتنت مصر في عهد العزيز الحاكم بأمر الله وقد حكم 21سنة وكانت غنية في عهده وأكبر دولة في الشرق الأوسط// بعده حكم الظاهر لإعزاز دين الله تحت وصاية عمته ست الملوك//وفي سنة 427هـ/1035م تولى الخلافة المستنصر بالله وانتقلت اليه وهو صغير عنده 7سنوات لكن حكم مصر 60 سنة وهي أطول مدة حكمها خليفة مسلم في التاريخ وفي عهده وصلت الخلافة عصرا عظيما.

العصر الثاني عصر الوزراء (الضعف والإنهيار)

وفي هذه المرحلة بدأ الضعف يدب في جسم الخلافة بسبب صراعات أدت في النهاية إلى سقوط الخلافة الفاطمية فضلا على تدهور أحوال مصر الاقتصادية مدة 7سنوات منذ457هـ/1065م بسبب شح فيضان النيل وماترتب عنه من قلة الزرع والغلاء إضافة الى تكالب القوى النصرانية على أملاك المسلمين من دخول النورمان الى صقلية سنة 1091م واستيلائهم عليها وطرد المسلمين منها وبذلك خرجت من يد الفاطميين (تفاصيل ذلك يتم التطرق لها في محاضرة سقوط الخلافة الفاطمية)

قائمة لأبرز خلفاء الدولة الفاطمية:

*/عبيد الله المهدي (909-934)، مؤسس **الدولة الفاطمية**
*/ القائم بأمر الله (934-946)
المنصور بالله **الفاطمي** (946-953)
المعز لدين الله (953-975)
العزيز بالله **الفاطمي** (975-996)
الحاكم بأمر الله (996-1021)
الظاهر لإعزاز دين الله (1021–1036)
المستنصر بالله **الفاطمي** (1036–1094

4/أزمات المشرق الإسلامي:

واجه المشرق الإسلامي في العصر الوسيط منذ القرن4_7هـ/10_13م أزمات مست جوانب عدة من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية تفاقمت خاصة في القرنين(5_6هـ)، مما مهد للانهيار الحضاري العربي في القرن7هـ نذكر منها:

*الأزمات السياسية: من مظاهرها انقسام المشرق إلى نظامين للخلافة الإسلامية: سنية عباسية/شيعية فاطمية، والصراع بينهما كان منذ مطلع القرن4هـ وحتى انهيار الدولة الفاطمية وبالتالي استنزاف طاقة الطرفين عسكريا واقتصاديا واجتماعيا، فضلا عن الصراعات الداخلية في كلا الدولتين العباسية والفاطمية" كانفصال بني زيري عن الفاطميين بحكم أراضيه بالمغرب الأدنى، والانفصال الذي برز في الدويلات المستقلة بمصر والشام وخراسان عن الخلافة العباسية في المشرق".

*الصراع الإسلامي المسيحي: والذي استمر ضد الدولة البيزنطية التي استنجدت بالبابوية وشعوب وحكومات أوربا من أجل شن حملات على العالم الإسلامي، والتي بدأت تصل إلى حدود العالم الإسلامي في المشرق منذ أواخر القرن5هـ.

*الأزمات الاقتصادية والاجتماعية: بسبب الحروب والفتن ما نتج عنه انتشار المجاعات والأوبئة والجفاف، خاصة الشدة المستنصرية" كالمجاعة في مصر من 457_464هـ"، والأزمة الاجتماعية من خلال تدهور الأحوال الاجتماعية كانتشار الفقر والمجاعات والصراعات المذهبية في المجتمع بين مختلف الطوائف المذهبية، خاصة بين السنة والشيعة الإسماعيلية.